نوادر من تاريخ الجزار

كلما اردنا اقفال هذا الباب يخطر على بالنا نوادر غريبة مما ذكرهُ الدكتور مشاقه في تاريخهِ فنعود الى ذكرها لا تسلية القراء بذكر النوادر التاريخية بل للاستدلال على احوال بلاد الشام منذ اقل من مئة عام البلاد التي كانت فيها دمشق عاصمة الاراميين وبيروت مرضعة العلم والحكمة في زمن الرومان وصور وصيداء سيدتا البحار ومركز تجارة الشرق والغرب في عصر الفينيقيين واورشليم قبلة النصارى وسبيط وحي اليهود وعكاء عاصمة الفلسطينيين وتدمر عروس البرية وبيسان عاصمة المدن العشر وغير ذلك من المدائن الكبيرة التي كانت حافلة بالسكان والعمران

في تلك البلاد وفي عاصمة من عواصمها تربَّع الجزار وتغطرس ومثَّل بالناس من كل الامم ولم يجسر احد على تخليص البلاد من شروره لان الهوان كان قد امات النفوس فلم تشعر به

ومن هذه النوادر ومن اغربها انهُ كان في دمشق رجل عاقل حكيم من يهودها اسمهُ المعلم حاييم فارحي . قال الدكتور مشاقة انهُ كان نابغة في حسن الطباع ومكارم الاخلاق وقوة الادراك فلما قتل الجزار اولاد الكروج مديري خزينتهِ على ما تقدم استدعى المعلم فارحي هذا اليهِ وجعلهُ مديرًا لخزينتهِ . وكثيرًا ما كان يغضب عليهِ ويسجنهُ ثم يطلقهُ ويردهُ الى منصبهِ لشدة حاجتهِ اليهِ . وفي اوقات غضبهِ عليهِ جدع انفهُ وصلم احدى اذنيهِ وفقأ عينهُ اليمنى فصار اجدع اصلم اعور ومع ذلك بقي في خدمة مولاهُ واي دليل اقوى من هذا على الذل والصغار

وكان الجزار يتأخر في دفع الاموال المفروضة عليهِ للباب العالي ويعتذر باحتياجهِ الى تعبئة الجنود لقمع ثورة لبنان وادخالهِ في طاعة الدولة فسئمت الدولة من مطلهِ وتعللاتهِ فكتبت اليهِ ان المدة طالت ويظهر انك غير قادر على اخضاع الجبل ولذلك صممت على ان ترسل وزيرًا مقتدرًا بالجنود الكافية . فكتب اليها انهُ سيفتح الجبل ويخضعهُ بعد ايام قليلة لانهُ رأى الضعف بادياً على اهلهِ وقد منع وصول الذخائر اليهم من البقاع والسواحل وهم لا يقدرون على المعيشة بغيرها . وبعد مدة وجيزة ارسل بشارة كاذبة الى الدولة مؤداها انهُ فتح الجبل فوجد فيهِ مئة وعشرين الف رجل من النصارى وستين الفًا من الدروز وثلاثين الفًا من المسلمين الشيعيين وثلثهم من السنيين . فبعثت الدولة اليهِ سيفًا مجوهرًا وشكرتهُ على همتهِ

وكان المعلم حايم محبوساً فلم يعلم بما كتبهُ الجزار ولم يكن الاَّ ايام قليلة حتى ارسلت الدولة الى الجزار اوراق خراج النصارى وزادت عليها مئة وعشرين الف ورقة يرسم نصارى لبنان فأسقط في يدهِ واخرج المعلم حايم من السجن وطلب ان يتجيهُ من هذه الورطة فقال لهُ المعلم حايم لا بدَّ لك من دفع هذا المبلغ من خزينتك الآن ثم تدبر طريقة تتخلَّص منهُ . فدفع قيمة هذه الاوراق من خزينتهِ . وبعد اشهر ارسل بشارة الى الدولة يقول فيها ان نصارى لبنان دخلوا كلهم في دين الاسلام . ثم لما مضت السنة ودخلت السنة التالية وارسلت اليهِ الدولة اوراق خراج نصارى لبنان ردَّها اليها قائلاً ان نصارى لبنان دخلوا في دين الاسلام كما عرضت قبلاً فارتفعت عنهم الجزية وكان ذلك بتدبير المعلم حايم

واتمَّ الدكتور شاغة قصة المعلم حايم فقال انهُ لما توفي الجزار توجهت ولاية صيداء الى سليمان باشا احد مماليكهِ وهو كرجي الاصل وكان حليمًا محبًّا للسلامة يكره الغطرسة ويحب العدل والانصاف ويعامل الرعية كلها معاملة واحدة وكان لهُ صديق من المماليك الشراكسة اسمهُ علي باشا فجعلهُ كتخدا لهُ واستدعى الاثنان المعلم حايم وقالا لهُ نريد استخدامك لاننا علمنا امانتك في خدمتك للجزار. فقال نعم انني خدمتهُ بكل امانة ولكن مكافأتهُ لي كانت تشويه صورتي وقلع عيني ولم يكن لي ذنب سوى تقديم النصيحة لهُ ليتوقف عن بعض اعماله التي تعود عليهِ بالتعب وعلى البلاد بالخراب فاذا كنتم عازمين ان تسيروا في خطتهِ فارجو ان تعفوني من الخدمة وتسمحوا لي بالاقامة في بيتي او بالتوجه الى اقاربي في دمشق . فكان جواب سليمان باشا لهُ اني اكره كل عمل يضر الناس واريد ان ينيط الله وغايتي راحة الرعية ورضا الدولة بدفع الاموال المرتبة لها سنويًّا ولا اطلب منك لنفسي سوى الف ريع ذهب فتدفلي توضع في جيبي يوم الجمعة لكي اوزعها على الفقراء حين خروجي من الجامع واما نفقات بيتي فهذه مفوَّض امرها الى تدبيرك كما اني افوض اليك جميع اعمال الايالة فلا اصدر امرًا الاَّ بتدبيرك واعاهدك على ذلك والله على ما اقول شهيد اني لا اغدر بك ولا اخالف رأيك في شيء

فقال المعلم حايم ان عمار البلاد يلزم لهُ اولاً العمال ذوو الكفاءة لادارة المصالح المنوطة بهم المتزهو النفوس عما بايدي الناس . ثانيًا ان تؤمن الرعية على دمائها واموالها من حكامها . ثالثًا ان يكافأ خدَّام الحكومة الامناء بالترقي اذا قاموا بما يطلب منهم وان يقاصُّوا اشد القصاص اذا اهملوا او ارتشوا ولا يستخدموا بعد ذلك في خدم الحكومة . ثم ان مشايخ المتاولة الذين نزحوا عن اوطانهم بعد استيلاء الحكومة عليها عائدون الآن بالسلب والاعتداء وقطع الطرق وتضطر الحكومة ان ترسل الجند وراءهم من وقت الى آخر فتنهم خسارة كبيرة

على الاهالي وعلى خزينة الحكومة فالاولى تأمينهم لكي يعيشوا مطمئنين ويكفوا الناس شرهم. ولقد صارت الاموال ثقيلة على الاهالي بما اضيف اليها بدلاً من متروكات الجزار التي لم يوجد فيها شيء من النقود ولكن الدولة حسبت ان كل ما وجد في سنداته هو اموال مستحقة على البلاد مع انهُ كتبها من غير حق وهي زيادة عن الاموال الاميريَّة فاذًا يلزمنا استحصال المال لنسد بهِ ما يبقى علينا بعد مصاريف الايالة واذا فرضناهُ على الاهالي ارهقناهم وعجزوا عن دفعهِ ووقعنا في ارتباكات جديدة وعندي انهُ يجب ان نأخذ المال من تجار الاجانب وذلك بان نحتكر بيع الغلال والزيت والقطن لهم يوميًّا وندفع لاصحابها ثمنها الذي تباع بهِ في السوق في ذلك اليوم وما بقي من الثمن يكون للخزينة

فقال لهُ سليمان باشا وعلي باشا افعل ما تشاء واكتب الاوامر ونحن نمضيها . ففعل حسبما أُمر فعين الولاة على لبنان وطرابلس ويافا وغزة وامَّن مشايخ المتاولة واقام كتَّابًا في خزينة عكاء جرجس مسدَّة وابرهيم الصايغجي واقام في ديوان التحريرات العربية المعلم حنا الصوره وكان مجدوع الانف من فضل الجزار . وصلحت احوال الولاية واستتبَّ الامر لسليمان باشا وطاعتهُ البلاد واحسن المعلم سايس ادارتها على موجب القواعد التي وضعها لسياستها فنشطت من عقال الخمول ورفلت في حلل الحبور . والنفس الصغيرة اقل شيء يرضيها كما يرضي الطفل الصغير . ومرَّت خمس عشرة سنة ضرب الامن فيها رواقهُ فعاشت الزراعة وراجت التجارة وتوفرت الاموال فانبسطت النفوس بعد انقباضها وتغنى الشعراء بمدح ولاتهم بعد ان كانوا يسرون بنكبتهم يدعون عليهم بالنار والسعير ترى ذلك واضحًا من مقابلة ما قالهُ الشعراء وقت وفاة الجزار بقصائد المعلم بطرس كرامة التي كان يمدح بها الامير بشيرًا فقد قال احدهم في وفاة الجزار

بشراك يا قلبي انكليم ومنيتي ... بمات من بناهُ غاية منيتي
الموت مكروه ولكن قد حلا ... بمات هذا الظالم الباغي العتي

وقال آخر

ولَّى الجزار ولا عجبٌ ... ومضى بالخزي وبالاثم
وبيمنهِ الباري عنَّا ... أرتخ قد كفَّ يد الظلم

وقال المعلم بطرس كرامه مهنئًا الامير بشيرًا بحضور خلعة الولاية لهُ من سليمان باشا سنة ١٨١٥ حسب العادة السنوية

صدحت على غصن السرور قماري ... وروت سعودك عن ضيا الاقمار

وجلا الزمان مطالعاً قد زانها من نور مجدك طالع الانوار
واتى المنا يهدي القلوب مسرةً تروي المسامع اطيب الاخبار
وعلا اسمي برفيع عزك بهجةً عمت بعدلك ربع كل ديار
وسرت نسيات الثناء بشائرًا اهدت ثناك بباطر الازهار
وزهت بنور شهابك العليا وقد ابدت لديك جواهر الاسرار
واهتزّ لبنان البهيج وقد غدا بك مخصباً متدفق الانهار
طابت مرابعهُ فاصبح مطلعاً لكواكب العلياء والاسحار
قلدتهُ نعماً وقد طوقتهُ كرماً يعقد تحاسن الآثار
ووهبتهُ شرفاً بحسن اماره وكسوتهُ ثوب الثنا المعطار
وجعلتهُ بالامن ربعاً ترتعي فيهِ الحمائل مع الهزبر الضاري
وافضتَ فيهِ جداول الخيرات من صافي تحالب جودك الفوار

وقال في مثل ذلك في العام التالي

هبطت نسيمات السرور بحديث رياض الخدور
وسرت فاهدتْ للنوّا دِ عرار ذياك العبير
مرّت بهنّ مجيرةً فتحملت نشر الشذور
وتأرّجت اذ لامست تلك المباسم في البكور
جاءت ضحى فتماوجت في عرف لبنان العطير
والروض قد خلع الربيـ ـع عليهِ كالثوب النضير
يزدان بين مسلسل مثل العذار ومستدير
والزهر يشرق ضاحكاً في غرة الصبح المطير
لعبت بهِ ايدي الصبا تلوي النحور على الخصور
والغصن صبغ رافصاً يهتز من فوق الغدير
ولحان هاج بهِ الهوى كحنين ساجعة الطيور
يا صاح هل للحب من الم الصبابة من مجير
ام للنسيم غير تذ كار الاحبة من سمير

وهو شعر شاعر لا يرى امامهُ الاَّ ما يروق الناظر ويسرُّ الخاطر ولكن ما اسرع ما تغيرت تلك الصورة بعد وفاة سليمان باشا سنة ١٨٢٠ وكان علي باشا قد توفي قبلهُ وخلفهُ

ابنهُ علي بك فاراد المعلم حايم ان يأتي بالولاية لهُ لكن تحيي سليمان باشا تكلموا معهُ ليسعى في جلب الولاية لمصطفى بك وهو ابن اخي سليمان باشا اما هو ففضَّل علي بك لانهُ مارس اعمال الحكومة بعد ابيهِ وكان يحسن العربية والعلوم الشرعيَّة فسعى لهُ في الاستانة بواسطة المعلم حزقيال الاسرائيلي وكان صرَّافاً في الباب العالي فارضى الدولة بواسطتهِ فوجهت منصب ولاية صيداء الى عبد الله بك وجعلتهُ وزيراً وهو عبد الله باشا المشهور في محاربة ابرهيم باشا المكاوي. وكان جزاء المعلم حايم منهُ ما ذكرهُ الدكتور مشاقة ونقلناهُ عنهُ في العام الماضي وهو

"ان عبد الله باشا لم يتصرف بالوزارة المطلوبة منهُ بل صار يخالط الاوباش ويعاشرهم ويعقد حلقة الذكر منهم وكان المعلم حايم يملوها حكمة وتهذيباً فساءهُ هذا التصرف وقدم لهُ النصيحة الواجبة لانهُ كان صادق الخدمة وهو يظن ان عبد الله باشا ينتصح بنصحهِ ويراعي حقوق صداقتهِ لكنهُ لم ينتصح بل اخبر خلاَّنهُ بما قالهُ لهُ المعلم حايم فقالوا ان هذا اليهودي قد غنا وتكبر على اهل الاسلام حتى ان البعض صاروا يقبِّلون يدهُ وقد قال القرآن العظيم ان اليهود اشد عداوة للذين آمنوا فكيف يليق بمسلم مثلك ان يأتمنهم ويعاملهم وان عمك المرحوم سليمان باشا كان رجلاً سادجاً فكان يملك قرون البقرة واليهود يحلبونها ويشربون لبنها وقد صارت الخزينة كلها في بيت هذا الرجل ولا احد يعرف ما دخلها وما خرج منها والخزينة بيت مال المسلمين فهل يجوز وضعها في بيت يهودي وائتمانهُ عليها. وبمثل هذا الكلام احتالوا على هلاك المعلم حايم فاولاً طلب منهُ عبد الله باشا ان يحضر مال الخزينة من بيتهِ ويضعهُ في سراي الحكومة وثانياً امرهُ ان يلازم بيتهُ وسلم الخزينة الى المعلم يوسف قرداحي من موارنة صيداء بعد ان عرضها على المعلم جرجس مسديه فرفضها وهو من كتَّاب الخزينة واجتمع الشيخ مسعود الماضي وعمر افندي البغدادي عند عبد الله باشا وقالا لهُ ان جميع المسلمين فرحوا برفعك نير هذا اليهودي عن اعناقهم وبمقدار فرحهم يخافون من مكرهِ وسحرهِ لانهُ ساحر ماهر وزد على ذلك ان لهُ كلمة مسموعة في الباب العالي بواسطة المعلم حزقيال الذي سعى في توجيه الولاية اليك رعاية لخاطر المعلم حايم فلا بدَّ من ان حايم يكتب اليهِ الآن بما حدث والذي يقدر على التولية يقدر على العزل لا سيما واليهود اغنياء والدولة تفتش عن المال لا عن الرجال فما دام حايم في قيد الحياة فلا يستريح البال من تدبيرهِ فصمَّم عبد الله باشا على قتلهِ غير مقدِّر العواقب وارسل تلك الليلة ابرهيم بك الجركسي زوج اختهِ وامرهُ بقتلهِ فاتاهُ الى خارج منزلهِ وخنقهُ وطرحهُ في البحر". وسنصف عاقبة هذا الغدر